السيد جحا

الحالم اليقظان

للأستاذ كامل كيلاني

١ — ترجيح الأضداد

يقول ابن زيدون :

« ياهل أنى من ظن بى ، فظنونه
شتى ترجح بينها الأضـــداد »

وما أكثر ماترجح الأضداد فى الحياة ، فيصعب تمييزهـا وتشتبه على الألمى البارع ، حتى ليصرخُ شاعرنا « أبو العلاء » متبرما بعجز الإنسان عن تعرف الصادق من الكاذب ، والجاد من الهازل والغافل من المتغافل ، والهادى من الهاذى فيقول :

« يكفى عناء من الدنيا ومنقصة
ألا يبين لك الهادى من الهاذى »

وقلما رأينا خلة محمودة ، أو ميزة فريدة مشهودة ، إلا رأينا ضدها من الخلال ، شديد القرب والشبه بها ، وثيق الاتصال .

وكثيراً ماتشتبه على أذكى الباحثين سمات العبقرية بالجنون ، والشجاعة بالتهور ، والاقتصاد بالبخل ، والإيداع بالسخف ، والتسامح بالعجز ، والتغابى بالغباء ، والتباله بالبله .

وقديماً قال ابن المقفع :

« وما من خلة هى فى الغنى مدح إلا وهى فى الفقر ذم »

وقال الشاعر :

« وسورة علم لم تسدد فأصبحت
وما يتارى أنها سورة الجهـل »

٢ — قصة الحكم الثانى

وما أكثر ما تجلو لنا ملابسات القول وبواعثه مايقلب المعنى الذى يتبادر إلينا رأساً على عقب .

وكيف تحكم على إنسان يسمع بهزيمة جيشه فلا يتحرك ، وينادى خادمه ليأتيه بالمطر بتطيب به قبل أن يقتحم عليه الثوار قصره ويقتلوه .

لا شك فى أنها غفلة بلغت المدى .

أو شجاعة لاتعبأ بالردى .

فإذا تجلت لنا ظروف القصة ، وعلمنا أن صاحب القصة هو الحكم الثانى الذى وهب حياته لتشجيع العلم والعلماء . وعلمنا كيف تألب عليه الحساد وحرضوا عليه سواد العامة ، بعد أن اتهموه بالزوق من الدين ، فاقتحموا عليه قصره بعد أن هزموا حرسه ، وكادوا يفتكون به فلم يجد وسيلة يعبر بها عن احتقاره لخصومه وتساميه إلا أن ينادى خادمه قائلا :

« علىّ بالغالية يا غلام »

وهنا تشتد دهشة الخادم فيقول :

« عجباً أهذا وقتُ الغالية يا أمير المؤمنين ؟ »

فيجيبه الحكم الثانى ساخراً :

« ويلك بم يعرف رأسى من رؤوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ »

رأينا حينئذ فى هـذا الرد الساخر ، أبلغَ تحقير لخصومه ، وأفتكَ إزراء بأعدائه الثائرين المتوثبين للايقاع به .

٣ — بين الأمين وكوثر

ولعل قريباً من هذا الباب قول الأمين لمن بلغه نبأ اندحار جيشه : « ويلك ، لقد اصطاد كوثر سمكتين وأنا لم أصطد إلا سمكة واحدة » وقريب من هذا قول الساخر الذى سئل عما يطلب قبل أن يصلب بلحظات يسيرة :

« لا أطلب غير الماء »

فلما سئل : « ألا تفضل الجمة ؟ »

أجاب : « كلا فقد أخبرنى الطبيب أنها تسبب لشاربها مرض الزلال » .

٤ — كيسان النحوى

من بدائع الجاحظ وطريف دعاباته ، ذلكم التندر الكاريكاتورى البارع الذى رتّم به أعجب نموذج للذاهل الحالم والصقه بكيسان النحوى فنعته : « بأنه يسمع غير مايقال له ، ويكتب غير ماسمع ، ويقرأ غير ما كتب ، ويفهم غير ماقرأ » .

وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

« تقول له : زيد ، فيكتب خالداً

ويقرؤه عمراً ، ويفهمه بكرا »

وهى غفلة يكاد يتسم بها كل مفكر عميق ، إذا حصر ذهنه فى فكرة بعينها .

٥ — غفلة نيوتن

ولعل أكثركم يعرف قصة نيوتن الذى هدته دقة اللاحظة إلى تعرف الجاذبية ، وكيف أراد أن يلقى بيضة فى الماء الغالى ويمسك بساعته عشر دقائق حتى تنضج وكيف نظر — بعد قليل — فرأى أنه يمسك البيضة فى يده ، أما الساعة فقد ألقى بها فى الماء مترقباً نضجها وشيها .

٦ — بين وزيرين

ولعل بعضكم يذكر قصة الوزيرين العباسيين حين التقى مركباهما فى نهر دجلة ، فأراد أحدهما أن يلقى إلى صاحبه بتفاحة ، وما كاد يهم بذلك حتى شعر بحاجة مفاجئة إلى البصق فى النهر .

فما ذا صنع ؟

ألقى بالتفاحة فى النهر ، وبصق فى وجه صاحبه .

وحاول أن يعتذر عن سوء فعله فقال: «غلطنا» فأجابه الآخر : « ثُلطنا » (أى : لحقنا العار ولطخنا) .

٧ — فضول المتسرعين

وإنما لجأنا إلى هذه المقدمات لننبه إلى أن كثيراً من الطرائف والدعابات الجحوية قد حملت على غير محملها وفهمت على غير وجهها فتوهم بعض المتسرعين من سامعيها أو قارئيها أن صاحبها أبلهُ أو مخبول .

وما هو — على الحقيقة — بأبله ولا مخبول ، ولكنه ساخر يتلعب بالعقول .

ومن هنا وجب على الباحث أن يجلوَ الظروف والبيئة ، ويوضحَ الملابسات ، حتى يأمن الناقد من الحيف والجور ، وينجو من التسرع والخطإ فيما يرتجله من أحكام بعيدة فى الغالب عن الصواب .

٨ — سفينة السلام

وكيف نحكم إذا سمعنا أن رجلا رأى مركبه تعنف به العواصف ، وتشتد فتتقاذفه الأمواج الثائرة ، ولا يلبث أن تتمزق أشرعته ، فينهمك ملاحوه فى إصلاحها . فيصيح بهم هذا الرجل :

علام تتكبدون عناء الصعود إلى أعلى السفينة ؟ إنها لا تهتز من أعلى بل من أسفل . فما بالكم لا تربطون أسفلها بقاع البحر حتى تأمنوا اهتزازها ؟ .

لا شك فى أننا نحسبه معتوها إذا لم ننظر إليه على ضوء ما أسلفناه . ومن يدرى ؟ فلعنا إذا رأينا مايصنعه قادة العالم لإنقاذ سفينة السلام التى تتقاذفها الأنواء وتمزق العواصف أشرعتها ورأينا كيف تشغلهم أسافل الأمور عن أعاليها ، فيقترحون ربط السفينة من أسفل ، بدلا من العناية بإصلاح أشرعتها العليا . عذرنا جحا فيما رآه .

٩ — جواب الخائن

ونحن إذا سمعنا أن رجلا كان يملأ جرته من النهر ، فأفلتت الجرة من يده ، فجلس يترقب خروجها من الماء ، حكمنا عليه بالبله ، كما حكم بعض الناس على صاحبنا جحا .

ولكننا حين نتمثله وهو محنق مغتاظ لسقوط الجرة وضياعها وإنه لفى دهشته وحيرته وهو مسترسل فى غيظه وغضبته ، وإذا بثقيل يقطع عليه تفكيره ويزعجه بسؤاله :

« عم تبحث يا أستاذ ؟ »

فلا يرى متنفساً لغيظه فى غير التهكم والسخرية بذلكم الفضولى فيقول :

« لقد أفلتت الجرة من يدى إلى قاع النهر فجلست أترقب عودتها إلى، ومتى عادت أمسكت بها من أذنها وفمها حتى لاتعاود السقوط مرة أخرى .

(بالبقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى